افتتاحية العدد 36

يأخذك "ويليام تشيتك" في رحلة إلى عوالم الفكر، تقف معه عند بوابة الكلام، تأخذك الدهشة من ارتسام الحروف المحفورة على عتبة القول، فتنبهر كثيرًا، وتصبح كقمر يدور في فلك كوكبه، حتى إذا ما وعيت، أدركت أنّك كنت تسمع حديثًا، يحتاج إلى مراجعة وتدقيق، فتنهال عليك رسوم السؤال، فتقف عندها، تحاول أن تتخطّاها، لكنّها سرعان ما تجرفك إلى ساحل شاطئ، فتلحّ عليك بأن تكون القطرة التي تريد أن ترفد البحر بما تصوّرته أنّه الماء. فتقرّر في نهاية الأمر أن تستريح، وتبوح بما يجول في خاطرك.

تبدأ الأسئلة من البدايات حين يذهب "تشتيك" إلى القول: "إنّ التصوّف والعرفان متعلّق بالتاريخ الفكريّ الإيرانيّ، وهو لا ينطبق على المرحلة المبكرة التي أدرسها عادةً. ففي النصوص التي أدرسها قليلًا ما ترد كلمة عرفان، وهي إن وردت تحمل المعنى نفسه لكلمة معرفة. بمعنًى آخر، لا ترد كلمة عرفان أبدًا للإشارة إلى "مدرسة فكريّة" خاصّة كما هو الحال اليوم في إيران المعاصرة"[[1]](#footnote-1).

هذا الكلام يحمل في طيّاته إشكالين؛ يتعلق الأول بالمقصد منه، حيث يلاحظ أنّ مثل هذا القول، يحمل في طياته نزعة، تعمل على موضعة العرفان ضمن رؤية، تحاول أن تقسّم العلوم الإسلاميّة بحسب توزّعها الجغرافيّ، فيُصبِحُ لكلّ علم بيئة خاصّة، ينمو فيها، وهذا ما ينعكس على الرؤية العامّة التي تعتبر أنّنا لا نستطيع الكلام عن "إسلام"، وإنّما "إسلاميّات" متعددة، لكلّ واحدة منها خصائصها ورؤيتها المنفصلة عن الأخرى، على الرغم من أنّ الاختلاف المذهبيّ لم يجعل أيّ علمٍ إسلاميّ ينغلق على نفسه، لذلك نرى المتكلّم والفيلسوف والعارف في كلّ مذهبيّة إسلامية.

الإشكالية ثانية منهجيّة، تتعلّق بنشأة العلوم، فعند التعاطي مع موضع علم معيّن، لا يمكن اعتبار تاريخ اكتمال العلم هو تاريخ هذا العلم، وهذا الأمر لا ينطبق على العلوم الإسلاميّة، إنّما على مطلق علم نتحدث عنه، بالتالي علينا الرجوع إلى البذرة الأولى التي تشكّل الأصل المرجعيّ له. وفي هذا الإطار، يكون العلم فيها بالقوّة، ويتحرك نحو كماله الخاصّ ليتبلور فيما بعد علمًا، وطالما أنّ "تشيتك" أشار لنفسه باعتباره متخصّصًا بالمرحلة المبكرة، ألا يمكن أن نسأله عنها:

كيف يمكن أن نفسّر بعض الظواهر كالزهد والتصوّف التي بدأت بالانتشار منذ القرن الأوّل للهجرة؟ وهل هذه الظواهر قائمة بذاتها، أم هي سياق في إطار حركة أكثر سعة؟ وإذا تمّ التغاضي عن هذه الظواهر هل كان بالإمكان الوصول إلى شيء اسمه التصوّف أوّلًا، والعرفان ثانيًا دونهما؟

تأخذك الأسئلة بعيدًا، تحاول أن تلملم أطراف الثوب، وتتدثّر بعباءة التسليم، علّه يقصد أنّ العلم عبارة عن حضورٍ في نفس العارف، لكنّك سرعان ما تستيقظ على وقع طبيعة اللغة التي تقول لك إنّ اللفظ لا ينفصل عن الملفوظ، فكلاهما وجود، فيوقظك قوله: "لا ترد كلمة عرفان أبدًا للإشارة إلى مدرسة فكريّة"، وما وُجِدَ يرتبط بالمعرفة، فهذا الكلام يحتاج إلى مراجعة تدقيقية، فماذا نقول عن مناجاة الإمام علي زين العابدين عليه السلام: "يا من آنس العارفين بطول مناجاته، وألبس الخائفين ثوب موالاته. متى فرح من قصدت سواك همته؟! ومتى استراح من أرادت غيرك عزيمته؟! ومن ذا الذي قصدك بصدق الإرادة فلم تشفعه في مراده؟! أم من ذا الذي اعتمد عليك في أمره فلم تجدّ بإسعاده؟! أم من ذا الذي استرشدك فلم تمنن بإرشاده؟!"[[2]](#footnote-2).

وورود كلمة "العارف" في هذا الموضع إلى ماذا يؤشّر؟ وإذا تناسيناها، فالحركة التي تتكلّم عنها المناجاة تُظهر بوضوح سير الإنسان الإرادي نحو الله، والإرادة هي أولى منازل العرفان، وعلى طريقة "ابن عربي" في كيفية نشوء التسمية: "حيث الاسم لا يدلّ على المسمّى إلا لصفة قامت فيه [...] فالخزانة سُميت خزانة لخزنها، والبيت سُميّ بيتًا للمبيت فيه، والإنسان سُمي إنسانًا لأنّه بمنزلة إنسان العين من العين، وآدم سُميّ آدم لأنّه من أديم الأرض، والخليل سُميّ خليلًا لخلّته، وهكذا الاسم استوجب المسمّى لصفة فيه"[[3]](#footnote-3). وهذا يعني أنّ العارفين لم يسمّوا بهذه التسمية إلّا لصفة فيهم وهو العرفان.

وسقوط التسمية – وهي لم تسقط - لا يعني غيابه، فهو كان في مرحلة جنينيّة، تقتضيها عمليّة تطوّر العلوم، والقابليّة الإنسانيّة في تلقّيها، فإذا نظرنا إلى الحراك الفكري، سنرى أنّه منذ القرن الأول، بدأت معالم هذا العلم بالتراكم عبر إثارة موضوعات كالزهد في الدّنيا، يقول "محمد بن كناسة"[[4]](#footnote-4):

|  |  |
| --- | --- |
| ومن عجب الدنيا تيقّنك البلا | وأنّك فيها للبقاء تريد |
| إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى | فإنّ فطام النفس عنه شديد[[5]](#footnote-5) |

كما تحدّثوا عن الكشف، وبدأوا باستخدام المفاهيم الصوفية كالعارف والمشاهدة، وإن كانت لم تصل إلى حدّ الثبات، تقول ميمونة السوداء[[6]](#footnote-6):

|  |  |
| --- | --- |
| قلوب العارفين لها عيون | ترى ما لا يراه الناظرونا |
| والسنة بسرّ قد تناجي | بغيب عن كرام كاتبينا |
| وترتع في رياض القدس طورا | إلى ملكوت ربّ العالمينا |
| وأجنحة تطير بغير ريش | وتشرب من كؤوس العارفينا[[7]](#footnote-7)  |

وحتى لو تناسينا كلّ ما ورد، وذهبنا باتجاه اللغة، فإنّنا سنجد أنّ العرفان من "عرف" و: "العين والراء والفاء أصلان صحيحان يدلّ أحدهما على تتابع الشيء متّصلًا بعضه ببعض، والآخر يدلّ على السكون والطمأنينة، فالأوّل العرف عرف الفرس، وسُمي بذلك لتتابع الشعر عليه [...] والأصل الآخر المعرفة والعرفان، تقول عرف فلان فلاًنا عرفانًا ومعرفة، وهذا أمر معروف، وهذا يدلّ على ما قلناه من سكونه إليه لأنّ من أنكر شيئًا توحش منه ونبا عنه"[[8]](#footnote-8). وهذا المعنى بالتأكيد لا يأخذ باتجاه المعرفة بما هي نوع من العلم، إنّما تؤشّر إلى حركة في النفس، يصل من خلالها الإنسان إلى مرحلة الطمأنينة، وهو عين ما ذكره تعالى في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[[9]](#footnote-9).

فما يقوله "تشيتك" يحتاج إلى نقاش ومراجعة منهجيّة، يقوم على أساسين؛ الأوّل هو الحفر في الأصل المفهوميّ لهذا العلم، والمراجعة الحثيثة في هذا الموضع، قد تُظهر الكثير من المعطيات الغائبة عنه، والثاني له علاقة في كيفية تطوّر العرفان كعلم إسلاميّ، وهذا يقتضي ملاحقة يكون العلم فيها من مرحلة الزهد إلى التصوّف وصولًا إلى العرفان، مع التأكيد على كون التصوّف ليس هو العرفان، والاختلاف بينهما عميق، يطال على الأقلّ اللغة والمنهج، وهذه العجالة لا يمكن أن تكون وافية؛ لأنّ الكلام في هذا الموضع يحتاج إلى تفصيل، ليس هنا مورده بالتأكيد.

وكلّما توغّلت بالقول ثارت الأسئلة في نفسك، وهذا لا يقلّل من أثر "تشيتك"، فهو يقدّم قراءته التي لا بدّ أن يتمّ الإصغاء إليها، ولكنّها من دون شكّ مؤرّقة، وتحتاج الكثير من التمحيص. وهو يتركك هائمًا لا تستقرّ على وجهة، فعلى الرغم من انشداده إلى التسمية، تراه يتناساها حين يريد ذلك، فتقف حائرًا بين المرادات، تقول في نفسك علّه تقمّص الحاكي عنه، فأبقى نصّه موردًا للفهم، حيث قال: "واحد من المفاهيم الأساسيّة في كتابات "ابن عربي" المبدأ المقدّر في التقاليد اليهوديّة والمسيحيّة، أنّ الله خلق الإنسان على صورته. والصيغة النبويّة لهذا القول هي قول النبي محمّد، صلّى الله عليه وآله، "إنّ الله خلق آدم على صورته"[[10]](#footnote-10)، تأخذك الدهشة من القول، فهل صحيح أنّ الحديث النبوي يأخذ هذه الوجهة، وهل هو مطابق بالفعل "للتقليد" المسيحيّ واليهودي؟

والتقليد هو الرؤية الرسميّة للتوجّهات الاعتقادية مع العلم أنّ "ابن عربي" يرى أنّ الله خلق آدم على صورته بمعنى الاشتراك في بعض الصفات لا كلّها، وأنّ المثليّة الواردة في القرآن لغويّة لا عقليّة؛ لأنّ المثلية العقليّة تستحيل على الله تعالى[[11]](#footnote-11)، فهذا العارف لم يتكلّم بما يقارب التقليد المسيحي الذي يقتضي التجسّد، كما أنّه عندما تكلّم عن الإنسان، فبالنسبة إليه الإنسان قابل للصورة، لا يمتنع عن قبول ما يعطيه له تعالى[[12]](#footnote-12).

ولكن هذا الأمر ليس لذاته، فالإنسان واحد لا غير، يتحقّق في الإنسان الكامل حين تظهر فيه الحقائق الإلهيّة، وما عداه يطلق عليه اسم إنسان لتشابهه به، فهو حيوان في شكل إنسان[[13]](#footnote-13). فالإنسان ليس الصورة الإنسانيّة التي نراها، فهو محمّد، صلّى الله عليه وآله وسلّم، الذي يعتبر القطب الذي يدور في فلكه دائمًا كلّ طالب للكمال، حتى يصل إلى مرحلة الاتصاف بالصفات المحمديّة، ويتحقّق الطالب بوحدته الذاتيّة مع مركز الدائرة، أي الحقيقة المحمّدية. فهذا الإنسان يستبطن جميع المراتب، ويُختصّ بالصورة الكاملة التي تجمع الحقائق الإلهيّة، وهي الأسماء وحقائق العالم، فهو بذلك أكمل الموجودات، والذي لأجله خُلق العالم[[14]](#footnote-14).

وهذا الإنسان هو آدم الحقيقي، الذي خُلِق على صورته آدم تكريمًا له، وعلى هذا الأساس سُمّي بآدم‏ لحكم ظاهره عليه. فإنّه ما عرف منه سوى ظاهره. كما أنّه ما عرف من الحقّ سوى الاسم الظاهر: وهو المرتبة الإلهيّة. فالذات مجهولة. وكذلك كان آدم‏ عند العالم، من الملائكة فمن دونهم، مجهول الباطن. وإنّما حكموا الملائكة عليه بالفساد، أي بالإفساد، من ظاهر نشأته؛ لما رأوها قامت من طبائع مختلفة، متضادة، متنافرة. فعلموا أنّه لا بدّ أن يظهر أثر هذه الأصول على من هو على هذه النشأة. فلو علموا باطنه، وهو حقيقة ما خلقه اللّه عليه من الصورة لرأوا الملائكة جزءًا من خلقه. فجهلوا أسماءه الإلهيّة التي نالها بهذه الجمعية، لما كشف له عنه فأبصر ذاته؛ فعلم مستنده في كلّ شيء ومن كلّ شيء. فالعالم كلّه تفصيل آدم. وآدم هو الكتاب الجامع. فهو للعالم كالروح من الجسد. فالإنسان روح العالم، والعالم الجسد.

ولعلّ هذا كان وراء إطلاق لفظ الإنسان على ثلاث مراتب وجوديّة مختلفة: مرتبة الإنسان الكامل، العالم أو الإنسان الكبير، القرآن أو الإنسان الكليّ[[15]](#footnote-15). بالتالي كيف يتأتّى للإنسان أن يجمع بين كونه على صورة الله، ومعبّرًا عنه تعالى من خلال أسمائه كلّها؟

كلّما التقيت "تشيتك" تثار بوجهك الأسئلة، وتتحفّز للتفكير معه، قد تتوافق أو تختلف، ولكنّك تدرك دون شكّ أنّك أمام شخصيّة علميّة كبيرة، تعرف كيف يوجّه الموضوع ويثمّر الأفكار، لينتج منّها نصًا، وهذه الشخصيّة تعرف كيف تدير الأفكار، لتقدّمها للمتلقّي، وهي وإن بدت موضوعيّة، ولكنّها تحمل في طيّاتها هواجسًا عميقة، تتجلّى من خلال الإصرار على مركز مفهوم الحبّ الذي جعله أصلًا مؤسسًا.

يعدّ "ويليام تشيتيك" اليوم واحدًا من العلماء الذين اشتغلوا في مجال الفكر الإسلامي، وأبحاثه تُغطي مجالات واسعة من الدراسات الدينيّة المقارنة، إلى الأبحاث الصوفيّة والفلسفيّة والأدبيّة. تُرجَمت أعماله إلى الكثير من اللغات البوسنيّة، الفرنسيّة، الألمانيّة، الأندونيسيّة، الإيطاليّة، اليابانيّة، الفارسيّة، الروسيّة، الأسبانيّة، التركيّة، والأورديّة.

وإذ إنّ واحدة من اهتمامات مجلّة المحجّة هو موضوع التصوّف والعرفان، وحثّ الفكر على قراءة ونقد نتاجات فكريّة عميقة، ارتأت إفراد عدد خاص يعرض فكر تشيتيك، ويستثير الباحثين في مجال التصوّف والعرفان الإسلامي للتعرّف على نتاجه الفكري كونه اهتمّ بهذا الموضوع بشكل خاصّ، وإن كان العدد لا يغطّي فكره الواسع، ولكنّها محاولة للإضاءة عليه، وفتح مجال لقراءته قراءة منهجيّة وعلميّة.

**مع العدد**

ينبني قوام هذا العدد على ترجمة بعض نتاج فكر البروفيسور تشيتيك حول موضوع التصوّف والعرفان الإسلامي، مضافًا إلى مقالات أخرى يدور فلكها في نقد ودراسة هذا الفكر. كما يتضمّن بيبليوغرافيا عنه تعرض بعض نتاجه العلمي من كتب ومقالات، وقد أبقت المجلّة عليها باللغة الإنكليزيّة خدمة منّا لطلاب العلوم الذين يريدون أن ينهلوا ويقرأوا آثاره تشيتيك من مصادرها الأصليّة، مضافًا إلى الإشارة إلى كتبه ومقالاته المترجمة للغة العربيّة حصرًا.

كما سعُدت مجلّة المحجّة بإجراء حوار خاصّ معه ضمن محاور عدّة أهمّها: شخصيّته ومشروعه الفكري ومرتكزات ذلك المشروع، مضافًا إلى موضوعات متعدّدة حول الحبّ والولاية والتعدّدية والنجاة. وقد سعت إدارة المجلّة لترجمة المقابلة إضافة إلى إبقاء نصّها باللغة الإنكليزيّة للإفادة منها بلغتها الأصلية، وحفاظًا على المعنى المقصود في النصّ الأصلي، لأنّ كلّ عملية ترجمة فهم وتأويل للنصّ الأصليّ.

وارتكز العدد أيضًا على ترجمة ستّة أبحاث للبروفيسور ويليام تشيتيك في مواضيع عدّة تمّ اختيارها من أبحاثه الكثيرة، حيث شرح في بحث "التجربة الدينيّة في الإسلام التقليدي" السبب الذي يجعل التصوّف مصدرًا لأدقّ الشروحات والتحليلات التي تتناول معرفة النفس لله في العلوم الإسلاميّة.

أمّا في بحث "الجذور الإلهيّة للمحبّة الإنسانيّة"، فيستعرض نظرة ابن عربي للمحبّة من جهتين: حبّ الله الذي هو أصل كلّ حبّ، والحبّ الإنساني المتمثّل بالأعدام المسمّاة بالأعيان الثابتة.

والبحث الثالث المعنون بـ"مواضيع عن الحبّ في الثيولوجيا الباطنيّة" ناقش الأمر من حيثيّات أربعة هي: النظر إلى الحبّ باعتباره حقيقة أبديّة، ودافعًا إلى الخلق، والقوّة المسبّبة للهداية الإلهيّة، والهدف النهائي لوجود الإنسان.

ويقدّم البروفيسور في بحث "موسى ودين الحبّ: تأمّلات حول منهجيّة دراسة التصوّف" إطار أحمد السمعاني النظري لموسى (ع) الذي يعدّه مثالًا للمحبّ الساعي إلى محبوبه الذي جذبه إليه بالملاطفة، وبالكلام بلا واسطة.

أمّا في بحث "ضبابيّة الأمر القرآني" فأشار تشيتيك إلى الاختلاف الحاصل في تفسير آيات القرآن الكريم بين أهل الحبّ وأهل المعرفة نظرًا لنسبيّة ابن آدم وعدم تمييزه بين المعرفة العقليّة والمعرفة النقليّة.

مضافًا إلى الأبحاث الخاصة من تراثه الفكري، قامت المجلة بترجمة بحثين في فكر ويليام تشيتيك. الأوّل تُرجم عن الإنكليزيّة لمحمّد رستم بعنوان "التوازن والتحقيق: النفس والكون عند ويليام تشيتيك". عرض فيها الكاتب كتابات تشيتيك عن النفس في ظلّ مقاربته لموضوع الكوزمولوجيا.

والبحث الثاني، وهو مترجم عن اللغة الفارسيّة بعنوان "منهجيّة ويليام تشيتيك في دراسة وتفسير النصوص الحكميّة والعرفانية لبهروز سلطانى بإشراف الدكتور أحمد رضى. عرض فيها عيوب الدراسات الحكميّة والعرفانيّة من وجهة نظر تشيتيك، وأهمّ عناصر المنهج الهرمنيوطقي عنده.

وتتمنّى مجلّة المحجّة أن يكون هذا العدد وغيره مدًّا وعونًا لطلّاب العلم والمعرفة، وخطوة في خطوات هذا الدرب الطويل والممتع.

أحمد ماجد

1. من الحوار الخاصّ الذي أجرته مجلّة المحجّة مع البروفيسور تشيتيك بتاريخ 22/11/2020. [↑](#footnote-ref-1)
2. الإمام زين العابدين ( ع )، **الصحيفة السجادية**، تحقيق السيد محمد باقر الموحد الأبطحي الأصفهاني (قم: انصاريان الطبعة1، 1411هـ)، الصفحة 442. [↑](#footnote-ref-2)
3. سعاد الحكيم، **ابن عربي مولد لغة جديدة** (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1990)، الصفحة 75. [↑](#footnote-ref-3)
4. - هو محمد بن  كناسة ويُكنى أبا يحيى. وُلِدَ عام 123هـ / 741 م، نشأ بالكوفة في بيت صلاح وتقوى، إذ كان خاله إبراهيم بن أدهم – رحمه الله - أحد من تذكر أسماؤهم في نشأة الزهد والتصوّف الإسلاميّ الذي يجمع بين الورع، والإيجابيّة في الحياة، والرباط في الثغور، لبّى محمد بن كناسة نداء ربه سبحانه وتعالى، ومات في شوال على الصحيح  لسنة سبع ومائتين للهجرة (207 هـ). وقال ابن قانع وهو من معاصريه: بل مات سنة تسع ومائتين (209 هـ )، والأول أصحّ. [↑](#footnote-ref-4)
5. - ابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب** (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة 1، 1404 - 1984م)، الجزء 9، الصفحة 232. [↑](#footnote-ref-5)
6. [↑](#footnote-ref-6)
7. - سيد حيدر آملي، **جامع الأسرار ومنبع الأنوار**، تصحيح وتقديم: هنري كوربان وعثمان اسماعيل يحيى (طهران: شركت انتشارات علمي وفرهنگى وابسته به وزارت فرهنگ وآموزش عالي وانجمن ايرانشناسي فرانسه، الطبعة 2، 1368ه.ش)، الصفحة 585. [↑](#footnote-ref-7)
8. - أحمد بن فارس بن زكريا (ابن فارس )، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون (قم: مكتبة الإعلام الإسلامي، 1404هـ)، الجزء4، الصفحة 282. [↑](#footnote-ref-8)
9. - سور **الرعد**، الآية 28. [↑](#footnote-ref-9)
10. - ويليم تشيتك، **محي الدين ابن عربي وارث الأنبياء**، ترجمة ناصر ضميرية (دمشق: دار نينوى، 2015)، الصفحة 49. [↑](#footnote-ref-10)
11. للمزيد، انظر، محيى الدين بن عربي، **الفتوحات المكّيّة** (أربع مجلدات) (بيروت: دار الصادر، دون تاريخ)، الجزء 1، الصفحة 97. [↑](#footnote-ref-11)
12. للمزيد، انظر، **الفتوحات المكّيّة**، مصدر سابق، الجزء 4، الصفحة 85. [↑](#footnote-ref-12)
13. للمزيد، انظر، المصدر نفسه، الجزء 2، الصفحة 396. [↑](#footnote-ref-13)
14. للمزيد، انظر، المصدر نفسه، المعطيات نفسها. [↑](#footnote-ref-14)
15. للمزيد، انظر، **الفتوحات المكّيّة،** مصدر سابق، الجزء 3، الصفحة 231. [↑](#footnote-ref-15)